من أسباب عزة المسلمين (١)

٢١/ ١٠/ ١٤١٧هـ

إِنَّ الحَمْدَ لِله نَحْمَدُهُ وَنَستَعينُهُ وَنَستغْفِرُهُ... أَمَّا بَعْدُ:

مَعَاشِرَ المُسلِمينَ:

تَقَدَّمَ فِي الجُمُعةِ المَاضِيةِ كَلامٌ حَولَ شَيءٍ مِنْ أَسْبابِ ضَعفِ المُسلِمينَ، وَأَنَّ تَغيرَ أَحْوالِهِم مَرهُونٌ بِتَغيرِ أَنْفُسِهِم إِلىَ مَا يُرضِي اَلله تَعَالى كَمَا قَالَ عَزّ وَجَلَ: {**إِنَّ الله لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**} [الرعد: ١١]، فَمَتَى غَيَّرَ المُسلِمُونَ أَحْوالَهُمْ وَأَصْلحوا شُؤونَهُم بَدَّلَ اُلله حَالَهُم إِلى أَحسَنِ حَالٍ، وَرَفَعَ شأْنَهُم وَأَعلى مَكانَتَهُم.

وَالنَّاظِرُ بِعينِ الاعْتِبَارِ إِلى أَحْوالِ النَّاسِ قَبلَ ظُهورِ الإِسْلامِ يَرىَ عَجَائبَ وَغرائبَ مِنْ الجَهالاتِ وَالظُلُماتِ الّتِي أَضَلَّتِ الكَثيرَ عَنْ طَريقِ الهِدايَةِ وَالرَّشَادِ، فَالأَصْنَامُ تُدعَى وَتُرْجَى، وَمَجالِسُ الخَمْرِ مَعمُورةٌ صَباحَ مَساءَ، وَالظُّلْمُ مَرفوعَةٌ رَايتُهُ وَقَد تَلوثَتْ فِي أَوحَالِهِ أَقْدامُ الكَثيرينَ.

شَاهِدُ المَقَالِ: أَنَّ حَياتَهُمْ لَمْ تَزلْ فِي ظُلُماتِ الجَهْلِ وَالفَوضَى حَتَّى بَعَثَ اُلله محمداً ﷺ فَأَخْرجَهُم اُلله بِهِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ، وَمِنَ الذُّلِّ وَالمَهانَةِ إِلى العِزَّةِ وَالمَكانَةِ، فَأَمْسكُوا بِزِمَامِ الأُمُورِ، وَتَوالتِ الفُتُوحاتُ وَالانْتِصاراتُ، وَلَمْ يَزالُوا فِي رِفعَةٍ وَعزَّةٍ بِسَببِ تَمَسُّكِهِم بِدينِهِم.

وَمَعَ تَقادُمِ الزَّمَنِ بَدأَ الضَعفُ يَدُبُ إِليْهِم بِسَببِ بُعدِهِم عَنْ دِينِهِم، وَيَزدادُ ضَعفُهُم بِقَدرِ ابْتِعادِهِم عَنْ دِينِهِم، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الجُمُعَةِ المَاضِيةِ ذِكرُ بَعضِ الأَسبَابِ الّتِي أَدَّتْ إِلَى ضَعفِ أُمَّةِ الإِسْلامِ وَانْهزامِهَا بِينَ الأُمَمِ، وَقَدْ أَجمَلتُ تِلكَ الأَسْبابِ فِي أُمُورٍ خَمسَةٍ هِي:

١- الإِعراضُ عَنْ حُكْمِ اِلله وَالجهْلِ بِأحْكامِ الدِّينِ.

٢- وَالإِعْجَابُ وَالتَبعيَّةُ المُطلقَةُ لأَعْدَاءِ الإِسْلامِ.

٣- وَالعَصَبيةُ الجَاهِلِيَةُ لِجِنْسٍ أَو لَونٍ أَو لِسَانٍ.

٤- وَاليَأسُ وَالقُنوطُ.

٥- وَتَعطيلُ الأَمْرِ بِالمَعروفِ وَالنَّهيِ عَنْ المُنْكَرِ.

وَسَيكونُ الكَلامُ فِي هَذهِ الجُمُعةِ إِنْ شَاءَ اُلله تَعَالَى عَنْ الأَسْبابِ الّتِي تَرتَفِعُ بِهَا الأُمَّةُ وَتَأخُذُ مَكَانَهَا اللائِقَ بِهَا، وَهِيَ كَمَا يلِي:

السَّببُ الأَولُ:

التَمَسُّكُ بِالكِتابِ وَالسُّنَّةِ مَنهَجاً وَعَقيدةً فَفِي ذَلِكَ الفَلاحُ كُلُّهُ وَالخَيرُ كُلُّهُ، فَلاَ فَلاحَ إِلاَّ بَالأَخْذِ بِهِمَا مَعاً وَتَحكيمِهِا فِي جَميعِ مَجالاتِ الحَياةِ {**وَأَطِيعُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**} [آل عمران: ١٣٢]، {**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**} [آل عمران: ٣١].

وَقالَ ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ**»[(١)]، وَالنُصوصُ فِي هَذا المَوضِعِ كَثيرةٌ جِدًّا.

وَبِكلِّ حَالٍ فَالتَمسُّكُ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبابِ الفَلاحِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَيَتبعُ التَمَسُّكَ بِهِمَا -أَو مِنْ لاَزِمِ التَمَسُّكِ بِهِمَا- مُحَارَبَةُ البِدعِ وَالتَحذِيرُ مِنْهَا، وَعَدَمُ الغَفلةِ أَو التَهْوينِ مِنْ شِأنِها مَهمَا صَغُرتْ، فَإِنَّ البِدَعَ إِذا غُفِلَ عَنْهَا زَادَ انْتِشارُهَا فَكَيفَ إِذا أَقَرَّهَا مَنْ عَلِمَها أَو هوَّنَ مِنْ شَأنِها، لاَ شَكَّ أَنَّ هَذا مِنَ الجَهَالَةِ بِمَكانٍ، بَلْ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَسبَابِ الهَزيمَةِ النَفسِيَّةِ، وَيُلقَى أَكْثَرُ حِمْلِ هَذا عَلَى مَنْ زَعَمَ الإِصْلاحَ بِخِلافِ مَا كَانَ عَليهِ مَنهَجُ سَلفِ الأَئِمَةِ وَقُدوَتِهَا.

السَبَبُ الثاني:

الالْتِفافُ حِولَ عُلمَاءِ الأُمَّةِ الرَّاسِخينَ فِي العِلمِ المَعروفِينَ بِصَلاحِ المُعتَقَدِ وَسَلامَةِ المَنْهَجِ ، فَالقُرْبُ مِنْ أُولئِكَ والاسْتِئنَاسُ بِآرائِهِم وَالصُّدُورُ عَنْ رَأيِهِم فِيهِ مَصلَحَةٌ عَظيمَةٌ

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٩٩).

لِلأُمَّةِ وَشَبابِهَا. فَعُلماءُ السُّنَّةِ أَدرَى النَّاسِ بِمُعالجَةِ قَضَايَا الأُمَّةِ، وَهُمْ أَبْصَرُ النَّاسِ بِمُجاراةِ وَاقِعِهَا وإيجادِ الحُلولِ النَّاجِعَةِ لَهَا، فَأولئِكَ الثُّلَّةُ مِنَ العُلَماءِ لاَ تَصْدُرُ آراؤُهُم إلاَ بَعدَ النَّظَرِ فِي النُّصوصِ الشَّرعِيَةِ، فَثَوابُهُمْ مُضاعَفٌ مَأجُورٌ وَخَطَؤُهُم غَيرُ مَأْزورٍ بَلْ مَأجورٌ قَالَ ﷺ: «**إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَحَكَمَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا إِجْتَهَدَ فَحَكَمَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ**»(٢).

الَّسبَبُ الثَّالِثُ:

إِعَادَةُ النَّظَرِ فِي تَاريخِ المُسلِمينَ المَجيدِ التَّليدِ، لاَ مِنْ بَابِ التَّسْلِيَةِ وَالمُواسَاةِ وَالتَواكُلِ، بَلْ مِنْ بَابِ شَحْذِ الِهمَمِ وَبَعثِ العَزائِمِ، وَكَيفَ كَانَ المُسلِمُونَ الأَوائِلُ أَقوياءَ حِسّيًّا وَمَعنويًّا، وَكَيفَ كَانَ تَمَسكُهُم بِدينِهم واعتِزازُهُم بِهِ حَتَّى دَانَتْ لَهُمُ الأُمَمُ وَخَضَعتْ لَهُم الأَعْداءُ، نَصَروا اَلله فَنَصَرهُم وَأَعَزُّوا الإِسْلامَ فَأَعَزَّهُمُ اُلله بِهِ.

فَاَلله نَسْأَلُ أَنْ يُعِزَّ الإِسْلامَ وَالمُسلِمينَ.

❊ ❊ ❊

(٢) رواه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

الخطبة الثانية

الحَمْدُ لِله...

مَعَاشِرَ المُسلِمينَ

السَّبَبُ الرَّابِعُ:

التَفَاؤُلُ وَالقَطعُ بِأنَّ النَّصْرَ لِلإِسْلامِ وَأَهلِهِ، كَمَا جَاءتْ بِذلِكَ النُّصوصُ الكَثيرةُ الّتِي تَدُلُّ دَلالَةً وَاضِحَةً عَلَى ذِلِكَ، مِنْ ذَلكَ قَولُهُ تَعَالى: {**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**} [التوبة: ٣٣].

وَقَدْ ذَكَر بَعضُ المُفَسرينَ عِنْدَ هَذهِ الآيَةِ عَدداً مِنْ الأَحَاديثِ النَبويَّةِ المُبَشِّرَةِ بِظُهُورِ الإِسْلامِ وَعِزتِهِ، فَمِن ذَلِكَ مَا أَخْرجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رِضِيَ اُلله عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اِلله ﷺ: «لاَ يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى فَقَالتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اُلله تَعَالَى عَنهَا- يَا رَسُولَ اِلله إِنْ كُنْتُ لأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ الله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) أَنَّ ذَلِكَ تَامٌّ فَقَالَ ﷺ «**إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ الله**»(٣).

وَعَنْ ثُوبانَ رَضِيَ اُلله تَعَالى عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اِلله ﷺ: «**إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ زَوَى لِيَ الأَرْضَ حَتَّى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلكها مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**»(٤).

وَمِنْ ذَلكَ أَيْضًا قَولُهُ ﷺ: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلاَ يَتْرُكُ الله بَيْتَ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ الله هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ الله بِهِ الإِسْلامَ وَأَهْلَهُ وَذُلاً يُذِلُّ الله بِهِ الْكُفْرَ**»(٥).

---

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٤) رواه أحمد (١٦٩٥٧).

(٥) رواه مسلم (٢٩٠٧).

أخْرَجهُ الإمَامُ أحمَدُ وَغَيْرُه عَنْ تَميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اُلله تَعَالى عَنْهُ ثُمَّ قَالَ تَميمٌ رَضِيَ اُلله عَنهُ بعدَ أنْ سَاقَ الحَديثِ: قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ.

وَبِكُلِّ حَال فَالنُّصُوصُ فِي هَذا البَابِ كَثيرَةٌ، وَلَعَلَّ مَا سَبَقَ يكْفِي فِي إِيضَاحِ المَقْصُودِ، وَلِلحَديثِ بَقيَّةٌ إِنْ شَاءَ اُلله تَعَالَى.

اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسلامَ وَالمُسلِمينَ، وَأَذِلَّ الشِّركَ وَالمُشرِكينَ، اللَّهُمَّ احفَظ بِلادَ المُسلِمينَ مِن شَرِّ الأَشرارِ، وكَيدِ الفُجَّارِ...

* * *